أنشودة المطر

بدر

من ايام الضياع في الكويت ، على الخليج العربي

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ ،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر .
عيناكِ حين تبسمان تورق الكرومْ
وترقص الأضواءُ .. كالأقمار في نَهَر
يرجّه المجذاف وهناً ساعة السحر ؛
كأنما تنبض في غورَيهما ، النجوم ...

★

وتغرقان في ضباب من أسىً شفيفْ
كالبحر سرّح اليدَين فوقه المساء ،
دفء الشتاء فيه ، وارتعاشة الخريف ،
والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء ؛
فتستفيقُ ملء روحي ، رعشةُ البكاء
ونشوةٌ وحشيةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر !

★

كأن « أقواس السحاب » تشربُ الغيومْ
وقطرةً فقطرة تذوب في المطرْ ...
وكركرَ الأطفال في عرائش الكروم ،
ودغدغت صمتَ العصافير على الشجر
أنشودةُ المطر ...
مطرْ ...
مطر ...
مطر ...
تثاءب المساء ، والغيوم ما تزالْ
تسحّ ما تسحّ من دموعها الثقال
كأن طفلاً بات يهذي قبل ان ينام :
بأن أمه — التي افاق منذ عام
فلم يجدها ، ثم حين لجّ في السؤال
قالوا له : « بعد غدٍ تعود .. » —
لا بد ان تعود
وإن تهامس الرفاق إنها هناكْ
في جانب التلّ تنام نومةَ اللحود
تسفّ من ترابها وتشربُ المطر ؛
كأنّ صيّاداً حزيناً يجمع الشبّاك
ويلعن المياه والقدر
وينثر الغناءَ حيثُ يأفل القمر .
مطَرْ ...
مطَرْ ....
أتعلمينَ أيّ حزْنٍ يبعثُ المطر ؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر ؟
وكيف يشعر الوحيدُ فيه بالضياع ؟
بلا انتهاء — كالدم المراق ، كالجياع ،
كالحبّ ، كالأطفال ، كالموتى — هو المطر !
ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطر
وعَبْرَ أمواجِ الخليج تمسحُ البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحار ،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليلُ عليها من دمٍ دثار .
أصيح بالخليج : « يا خليجْ
يا واهبَ اللؤلؤ ، والمحارِ ، والردى ! »
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
« يا خليج
يا واهب المحار والردى .. »

★

أكاد أسمع العراقَ يذخرُ الرعود
ويخزنُ البروقَ في السهول والجبال ،
حتى إذا ما فضّ عنها ختْمَها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود
في الوادِ من أثرْ .
أكاد أسمع النخيلَ يشرب المطر
وأسمع القرى تئنّ ، والمهاجرين
يصارعون ، بالمجاذيف وبالقلوع ،
عواصفَ الخليج والرعودَ ، منشدين :
« مَطرْ ...
مَطرْ ...
مَطرْ ...
وفي العراق جوعْ !
وينثرُ الغلالَ فيه موسمُ الحصادْ
لتشبعَ الغربانُ والجراد
وتطحنَ الشوانَ والحجرْ
رحىً تدور في الحقول ... حولها بشرْ !
مطر ...
مطر ...
مطر ...
وكم ذرفنا ، ليلةَ الرحيل ، من دموع
ثم اعتللنا – خوفَ أن نُلامَ – بالمطر ..
مطر ...
مطر ...
ومنذ أن كنا صغاراً ، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر ،
وكلَّ عامٍ – حين يُعشبُ الثرى – نجوع !
ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوع .
مطر ...
مطر ...
مطر ...
في كلِّ قطرةٍ من المطر
حمراءُ أو صفراءُ من أجنّةِ الزَّهَرْ .
وكلُّ دمعةٍ من الجياع والعراة
وكلُّ قطرةٍ تراقُ من دم العبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد
أو حُلمةٌ تورّدتْ على فم الوليد
في عالم الغد الفتيّ ، واهب الحياة !
مَطرْ ...
مطر ...
مطر ...
سيُعشبُ العراقُ بالمطر ... »

★

أصيح بالخليج : « يا خليج ..
ياواهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى ! »
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
« يا خليج
ياواهب المحار والردى . »
وينثر الخليج ، من هِباته الكثار ،
على الرمال : رغوَه الأجاج ، والمحار
وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظلَّ يشربِ الردى
من لجة الخليج والقرار ،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
من زهرةٍ يربُّها الفرات بالندى .
وأسمع الصدى
يرن في الخليج :
« مطر ..
مطر ..
مطر ..
في كل قطرة من المطرْ
حمراءُ أو صفراء من أجنّة الزَّهر .
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد
أو حُلمة تورّدت على فم الوليد
في عالم الغد الفتيّ ، واهبِ الحياة .. »
. . . .
ويهطل المطر ..

بغداد

بدر شاكر السياب